نظرية الحضارة بين محمد إقبال و مالك بن نبي

أ. بوبكر جيلالي،
قسم الفلسفة، جامعة وهران.

1- الالتقاء: أصل الحضارة فكرة دينية.

ليس غريبا أن يتفق المفكرون والمصلحون والعلماء في نظراتهم إلى الحياة، وفي تحديدهم لسبيل الإصلاح ومناهج التغيير والتجديد. لأن عالم الفكر والإصلاح والعلم ليس حكرا على أحد، وفيه تبحث وتناقش شروط ولوازم وسبل وأهداف الإصلاح والتجديد، كما يتميز بطابعه الرامي باستمرار إلى بلوغ الأفضل و الأقوى في جميع مجالات الحياة، وبهذا يصير العالم من نصيب الإنسانية جمعاء، لا يختص فيه دين أو لون أو عرق أو أرض. وعالم الإصلاح والتجديد في العالم الإسلامي الحديث يعكس الطابع الشمولي والخصائص التي يحملها أي فعل إصلاحي، باعتبار الفعل الإصلاحي واحدا في منطلقاته وأهدافه، ومتنوعا بحسب الظروف التاريخية التي يظهر فيها الفكر الإصلاحي، أو يجري فيها الإصلاح والتجديد. و يبقى كل ما هو مطلوب من الإصلاح و التجديد ضروري في كل وقت و في أي مكان، لأن الإنسان بطبعه يملّ التكرار و ينفر من الرتابة، فيحتاج دوما إلى الجديد. وما دام الفساد يتسرب إلى حياة الإنسان فهو مطالب بتقويم وضعه وإصلاحه باستمرار.

وإذا كان الاتفاق طبيعيا بين دعاة الإصلاح والتجديد في العالم، وعبر التاريخ، لما يجمعهم، ويجمع شعوبهم، ويجمع أبناء البشرية ككل، فنجد ذلك بين دعاة الإصلاح والتجديد في اليونان القديم، وفي صدر الإسلام، وفي بداية النهضة الأوروبية الحديثة، وفي المجتمع الإسلامي الحديث. والإصلاح والتجديد من أهم شروط ومظاهر الحضارة التي هي أخذ وعطاء، فكيف لا يحصل الاتفاق والتماثل في الفكر الإصلاحي بين دعاة الإصلاح من عصر واحد ومجتمع واحد ودين واحد، فالتماثل قائم وبقوة بين كافة المصلحين و دعاة التجديد في العالم الإسلامي الحديث، كما نجد الاختلاف حالّ هو الآخر في عالم الإصلاح والتجديد لدى المفكرين في المجتمع الإسلامي الحديث، وعندما نقرأ المحاولات الإصلاحية والتجديدية عند محمد عبد الوهاب أو جمال الدين الأفغاني أو محمد عبده أو محمد إقبال أو عبد الحميد ابن باديس أو مالك بن نبي وغيرهم نجد النقاط التي تجمعها أكثر من النقاط التي تفرقها، فهي تلتقي في نقاط كثيرة، حتى أن القارئ يعجز أحيانا عن التمييز بين فكرة الأفغاني و فكرة تلميذه محمد عبده،ولا يستطيع أن يميز بين رأي ابن باديس وغيره، حتى هؤلاء الذين بالغوا في

التجديد، ونادوا بالتمرد على القديم يلتقون في أكثر من نقطة مع غيرهم من أهل الاعتدال، أو حتى من أهل التشديد على القديم.

لقد كشف كل منهما الضعف الديني الذي آل إليه العالم الإسلامي، ولم يبق من الإسلام سوى الاسم، ومن القرآن سوى الرسم، ومن الإيمان سوى اللّفظ، وسعى الاستعمار إلى تزييف تعاليم الإسلام ومبادئه، مستخدما طرقا عديدة وأساليب مختلفة، واستخدم في ذلك أبناء العالم الإسلامي أنفسهم، مستغلا فيهم الجهل، والأمية، والتخلف، فكثر الدّجل، وانتشرت الشعوذة والأباطيل والأساطير والأوثان المختلفة، والفهوَم الخاطئة لأمور الدين والدنيا، ولم يعد المسلمون يعرفون حقيقة دينهم وحقيقة دنياهم، فهم بقوا على المدارس الفقهية الموروثة بعيدا عن محاولات الاجتهاد الجادة والسليمة، وعلى تراث فكري وأدبي تركه الأولون، بعيدا عن محاولات التجديد والإبداع في مجال الفكر والفلسفة والأدب وغيرها، فصاروا في وضع فكري وديني ضعيف يسمح للغير بغزوهم، ويجعل منهم لقمة سائغة في يد أعدائهم، ويقوي فيهم التخلف والتبعية لغيرهم.

وحال المسلمين في حياتهم النفسية والاجتماعية نجده كحالهم في الحياة الدينية حسب إقبال ومالك. فلم يعرف المسلمون قوة الإرادة والعزيمة، ولا الثقة بالنفس، ولا الشعور بالمسؤولية تجاه الذات والوطن والدين، بل عاشوا خيبة الأمل، والشعور باليأس والقنوط، وكراهية الواقع، لما كانوا يلقوه فيه من بؤس وشقاء وتعاسة وحرمان، بسبب الجهل والفقر والأمراض، وسيطرة العادات والتقاليد الفاسدة. ولم يكن للشعوب الإسلامية شيء في الاقتصاد والسياسة وهي تحت الاحتلال، فثرواتها وخيراتها الطبيعية، وطاقاتها البشرية كانت تستغل من قبل الاستعمار، كما كانت خاضعة له سياسيا وعسكريا، وكان الاستعمار يعمل جاهدا على فرض سلطانه وهيمنته على هذه الشعوب، لضمان استمراره واستغلالها ونهب خيراتها وثرواتها من خلال ضمان أسباب القوة لديه، وأسباب ضعفها وتخلفها. وفعلا ازدادت تخلفا وانحطاطا في كافة ميادين الحياة، وصارت في تبعية حضارية تامة لغيرها. ويصف إقبال وضع المسلم الذي تحول من « المسلم القوي الذي أنشأته الصحراء، وأحكمته رياحها الهوجاء، أضعفته رياح «العجم »، فصار فيها كالناي نحولا ونواحاً!!![...] والذي كان يمضي على الدهر حكمه، ويقف الملوك على بابه، رضي من السعي بالقنوع، ولذّ له الاستجداء والخشوع!!».

(عزام ع، 1954: 100) ويصف مالك بن نبي العالم الإسلامي وما آل إليه بأنّه « من المحزن حقّا أن العالم الإسلامي ـ إبان هذه الحقبة ـ قد استسلم لرقاد طويل، لم يفطن

لساعات التاريخ الفاصلة، ولم يحاول انتهاز فرصتها السانحة، ليتخلص من الاستعمار» (بن نبي، م، 1969: 35).

لقد صنعت إقبال الفيلسوف، ومالك بن نبي الفكر، ظروف تاريخية واحدة. استمد كل منهما فلسفته، وفكره، من مصادر واحدة وروافد متماثلة تماما. فكل منهما ابن بيئة إسلامية ومحيط ديني محافظ، ارتبط بالإسلام وفهمه عقيدة وشريعة، وكان حبه للّه ولرسوله كبير، لم تؤثر فيه دعوات الإلحاد بل كانت تلك تزيده تمسكا بالإسلام، وحبّا له، ودفاعا عنه، وتزيده تخلقا بأخلاق الإسلام لرفع التحدي والتصدي لدعاة التغريب من أبناء العالم الإسلامي ومن غيرهم. كما اطلع كل منهما على الفكر الإنساني بشكل عام والفكر الإسلامي بشكل خاص، ونال عندهما الفكر الإسلامي القديم والحديث كل العناية، وكل الاهتمام بالمتابعة والدراسة والتقويم والمراجعة، كما نال الفكر الغربي القديم والحديث نفس العناية والاهتمام، وكان للفكر الغربي والحضارة الغربية بشكل عام الأثر البارز في فلسفة إقبال وفكر مالك بن نبي. لأن الفكر الإصلاحي الحديث لدى المفكرين هو مجرد استجابة لفكر غربي،و حضارة غربية غزت العالم الإسلامي، فكانت أمام قيم دينية وتاريخية موروثة، حملها دعاة الإصلاح، وأصحاب التجديد، في واقع تميز بوجود عالمين اثنين: عالم متخلف مغزو غشّه ليل الاستعمار، فهو يعاني الجهل والفقر والبؤس والحرمان، والعالم الإسلامي جزء منه. وعالم متحضر، غازي، يعيش الحضارة والمدنية والرفاء المادي والتنظيم الاجتماعي، وهو العالم الأوروبي. فكان واقع المسلمين المتميز بالتخلف والانحطاط من جهة وواقع أوروبا المتميز بالتقدم والرقي العلمي والتكنولوجي والاقتصادي من جهة أخرى، لهما الأثر البارز في تكوين فلسفة إقبال و فكر مالك بن نبي.

ولما كانت نفس الدوافع والأسباب دفعت الشخصيتين إلى التمسك بالإسلام، والإطلاع على الفكر الإسلامي القديم والحديث، والاتصال بالغرب وبحضارته والإلمام بالفكر الغربي وفلسفاته، والنظر إلى واقع الإنسان المعاصر، المسلم والأوروبي، فهي الظروف التي جعلت كلاّ منهما يفكر في الإصلاح والتجديد، ويقيّم عالم الفكر وعالم الواقع، وينتج فكرا وفلسفة، وهي التي جعلت المحاولتين الإصلاحيتين للفيلسوفين أكثر تشابها وأكثر تماثلا، والنقاط التي تجمعهما أكثر من النقاط التي تفرقهما. فعالم الواقع في نظر المحاولتين مريض يحتاج إلى العلاج، فواقع المسلمين مزري والواقع الأوروبي تسيطر عليه حضارة ذات طابع مادي، وذات فكر إلحادي أفقد الحياة معناها، وأفقد الوجود الإنساني قيمته، وصار المسلم ضالا بسبب تخلّفه وانحطاطه،

وصار الأوربي شاردا بسبب طغيان الاتجاه الإلحادي المادي على حياته، فالاستعمار والتخلف والطابع المادي للحياة الأوروبية الغربية. والتي انتقلت إلى العالم الإسلامي كل هذا صنع نظرة المفكرين الواحدة إلى عالم الواقع، وصنع الحاجة إلى الإصلاح والتغيير والتجديد. أما عالم الفكر فهو واحد في النظرتين.فالفكر الإسلامي القديم وما تميز به من قدرة على الاستيعاب ومن دقة وعمق ويقين، سواء تعلق الأمر بالفلسفة الإسلامية بمختلف فروعها أو بعلوم الدين، وعلوم الطبيعة والإنسان، كل هذا شيّد حضارة إسلامية زاهرة كانت ـ بدون شك ـ رافداً رئيسياً للفكر الغربي الحديث، وللحضارة الغربية الحديثة.

إنّ الازدهار الفكري والنماء الحضاري الذي شهده المسلمون قديماً لم يعد لهم في العصر الحديث ما يجعلهم قادرين على فعل أدنى مما فعله الأولون، نظرا لظروفهم المزرية وأوضاعهم الفاسدة، حتى أنّ الفكر الإصلاحي الحديث في العالم الإسلامي لم يكن قائما على رؤية فلسفية دقيقة وواضحة وسليمة إلى تاريخ والحضارة والإنسان والوجود، وتعدد مذاهب واتجاهات الإصلاح والتجديد، والأُحادية في الحل والمعالجة لدى الاتجاه أو ذلك، يدل على قصور المحاولات الإصلاحية التي شهدها العالم الإسلامي الحديث، وعجزها عن تقديم منهج متكامل، وأسلوب كاف لإنقاذ المجتمع الإسلامي من أزمته الخانقة، ومحنته العميقة، لذا حاول كل من إقبال ومالك تقديم رؤية فلسفية للتاريخ ووضع نظرية إصلاحية تعالج الأوضاع وتقضي على المشاكل، لم تكن تلك الخطة مستمدة مما وصل إليه الغرب الأوروبي من أفكار وعلوم ومناهج في الإصلاح والتجديد. لأن الفكر الغربي في نظرهما قصوره الروحي جعله ينتج حضارة ويصنع إنسانا خاليا من القيم الروحية المثلى، تسيطر عليه الغرائز والشهوات والأنانية، إنسان لا يفكر إلاّ في بهيمتيه، ولا يعطي وزنا إلا للمادة خارج القيم الأخلاقية العليا ـ الشرف والكرامة والعدل ـ التي لم تعد تهمه، في حياته الفردية أو الاجتماعية، أو في تعامله مع غيره. أمام ضعف الفكر الإصلاحي الحديث في العالم الإسلامي، وأمام قصور الفكر الغربي وقصور الحضارة الغربية عن بلوغ مبتغي الإنسان والحياة و مع وجود الإسلام وقيّمه وتعاليمه السمحة، قامت الحاجة ـ عند إقبال ومالك ـ إلى الإصلاح والتجديد، و إلى السعي نحو النهضة و الحضارة والتقدم.

يقول محمد إقبال في ضرورة قيام المحاولة الإصلاحية، والظروف مناسبة لقيامها: «أحاول بناء الفلسفة الدينية بناء جديدا، آخذا بعين الاعتبار المأثور من فلسفة الإسلام، إلى جانب ما جرى على المعرفة الإنسانية من تطوّر في نواحيها المختلفة. واللّحظة الراهنة مناسبة كل المناسبة لعمل كهذا. ».(إقبال، م، 1955: 2) ويؤيده مالك بن نبي قائلا:

«فلما دخلت إلى المدرسة اللاّسلكي ... لم تعد تجذبني أحلام الآفاق البعيدة، ولم يستملني مركزا اجتماعي مرموق ...وأصبحت أشعر كأنني حُمِّلت جميع آثام مجتمع يبحث عن الخلاص من بؤسه، كأنني بالنسبة لذلك المجتمع كبش فداء، شاعر بثقل ما حملّه من مسؤوليات ومحن وآمال لتحقق له الخلاص بفضل دراسته». (بن نبي، م 1984: 219) .

إنّ التخلف حسب إقبال ومالك، ظاهرة أملتها ظروف عديدة، وأسباب كثيرة، بعضها موضوعي وبعضها ذاتي وهي ليست طبيعية في الفرد والمجتمع والأمة والإنسانية جمعا. لما يملك الإنسان من قوة وقدرة على التغيير والتجديد والنهضة والتحضر، فالمجتمع الإسلامي عرف في وقت مضى كل مظاهر الازدهار الثقافي والحضاري، وهو يعيش في العصر الحديث ظلمات الجهل والتخلف، لأنه فقد أسباب النهضة والحضارة، وتقيد بعوامل الضعف والانحطاط في المجال الفكري والديني والاجتماعي. وسبيل النهضة هو القضاء على أسباب التخلف من خلال مناهج ووسائل ثقافية وفكرية واجتماعية تكفل الوعي السليم والعمل البنّاء في مختلف قطاعات الحياة وفي شعوب أوروبا الحديثة القدوة والعبرة، وفي شعب اليابان المعاصر المثال الحي لذلك.

وينبذ إقبال أي نهضة وكلّ حضارة تعبد الجانب المادي من الحياة وتستبد بالروح، والإسلام في نظره هو الذي « يكفل له ـ للمسلم ـ آخر الأمر الفوز على مجتمع يحركه تنافس و حشي، وعلى حضارة فقدت وحدتها الروحية بما انطوت عليه من صراع بين القيم الدينية والقيم السياسية. ». (إقبال، م، 1955: 217) ويكاد يتفق مالك بن نبي على نفس المفهوم والمعنى، فالحضارة عنده هي: «مجموع الشروط الأخلاقية والمادية التي تتيح لمجتمع معين أن يقدم لكل فرد من أفراده في كل طور من أطوار وجوده، منذ الطفولة إلى الشيخوخة، المساعدة الضرورية له في هذا الطور أو ذاك من أطوار نموه. ». (بن نبي، م، بدون سنة: 35).

يتفق محمد إقبال ومالك بن نبي اتفاقا تاما، على أن أيّة حركة نهضوية في التاريخ، وأيّة حضارة يشهدها الإنسان في مرحلة تاريخية ما، تكون حاصل فعل التغيير أو التغير الذي يطرأ على الإنسان باعتباره الكائن الوحيد الذي يتحضر، وكتب له (اللّه) الاستخلاف في الأرض والتغيير له طابعه الخاص، كما له مجالاته. فطابعه روحي في الأصل، ومجاله ذات الإنسان ونفس الفرد، أولا، ثم المحيط الطبيعي والاجتماعي ثانياً، وتلك سنة سنها اللّه في مخلوقاته، ويعبر عنها القرآن في قوله تعالي: « إنّ اللّه لا يغيّر ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم ». (سورة الرعد الآية11.) يقول إقبال في هذه السّنة: « وفي هذا المنهج من التغير التقدمي، لا يكون اللّه في عون المرء على شريطة أن يبدأ هو

بتغيير ما في نفسه. ». (إقبال، م، 1955: 19) ويؤكد مالك بن نبي ذلك بقوله:« هذه حقيقة علمية يجب أن نتصورها كقانون إنساني وضعه اللّه عزّ و جل في القرآن، كسنّة من سنن اللّه التي تسير عليها حياة البشر. ». (بن نبي،م،1978: 58).والتغيير في داخل النفس يمس المفاهيم والتصورات والمعاني، ومعنى الإنسان ومعنى الحياة ومعنى الوجود ووجبات و حقوق البشر، كما يمس أنماط وطرق التفكير، ومناهج وأساليب العمل، ويمس القيم التي يؤمن بها الإنسان والمبادئ التي تقوم عليها حياته والغايات التي لأجلها يحيا، هذا التغيير في معطيات الذات الإنسانية، يجرى بعد ذلك في الواقع الاجتماعي والطبيعي، ومتى كان التغيير سليما ومتوازنا كانت الحضارة، ودخل صاحبها التاريخ، ومتى كان التغيير ضعيفا ومختلا فسدت الحياة، وازداد الإنسان انحطاطا وتخلفا. فالتغيير بالنسبة للفرد هو تبدّل في الفكر والثقافة والأخلاق، أما بالنسبة للمجتمع فهو تحوّل في النظام الاجتماعي العام، بعاداته وتقاليده وقوانينه، أما بالنسبة للطبيعة فيتجسد في تسخير ظواهرها وتحويلها من صورة غير نافعة إلى صورة نافعة، بواسطة أدوات ومعارف ومناهج معينة، والتغيير في هذه المجالات ككل متحدة، هو تغيير في حياة الإنسان ككل، بدونه لا نهضة و لا حضارة.

ولا نستطيع أن نميز بين فلسفة إقبال ونظرية مالك بن نبي حول دور الدين في بناء الإنسان والحضارة والتاريخ، فإقبال يعتبر الإنسان المسلم، المتحلي بأخلاق اللّه هو الإنسان الكامل، لأجله وجد كل شيء، هو إنسان القوة والحضارة والتاريخ، وما سواه زيف وباطل. والحياة في أصلها روحية وفي مصيرها روحية ذلك ما قرره الإسلام، ويبيّن إقبال الدور الذي يلعبه الدين، وتلعبه الفكرة الدينية في تحريك التاريخ، وتشكيل الحضارة من خلال الدور الذي لعبه الإسلام في التاريخ فيقول: « الإسلام بوصفه حركة ثقافية ... ونظاما عاطفيا يقول بوحدة الكلمة، يدرك قيمة الفرد، من حيث هو فرد، ويرفض اعتبار قرابة الدم أساسا لوحدة الإنسانية ... ولا يتيسر التماس أساس نفساني بحت لوحدة إنسانية إلاّ إذا أدركنا الحياة الإنسانية جميعا روحيا في أصلها ومنشئها... ولهذا كان أمرا جدّ طبيعي أن يشرف نور الإسلام بين قوم سذج لا يعرفون شيئاً من ثقافات العالم القديم، و تقع بلادهم في رقعة من الأرض تلتقي فيها قارات ثلاث، و تجد الثقافة الجديدة في مبدأ " التوحيد " أساساً لوحدة العالم كله. والإسلام بوصفه دستورا سياسيا ليس إلاّ أداة عملية لجعل هذا المبدأ عاملا حيّا في حياة البشر العقلية والوجدانية. »(إقبال، م، 1955: 168.169) ويؤكد مالك بن نبي أفكار محمد إقبال حول دور الدين في بناء الإنسان والتاريخ والحضارة، بأسلوبه، ومعجميته، وفي إطار منهجه، ونظريته التي تعتبر الحضارة حاصل جمع العناصر الثلاثة، وهي الإنسان والتراب والوقتو لكن

هذه العناصر لا تجتمع وتتآلف وتتكامل إلاّ بفعل الدين الذي يركّب فيما بينها. إذ يقول في ذلك: «فدورة الحضارة إذن تتم على هذا المنوال، إذ تبدأ حينما تدخل التاريخ فكرة دينية معينة أو"عندما يدخل التاريخ مبدأ أخلاقي معين" (Ethos) على حد قوله < كيسرلنج > كما تنتهي حينما تفقد الروح نهائيا الهيمنة التي كانت لها على الغرائز المكبوتة والمكبوحة الجماح.» (بن نبي،م، 1969: 105)، ويقول كذلك: « فالفكرة الدينية تتدخل إما بطريقة مباشرة، وإما بواسطة بديلاتها اللادينية نفسها، في التركيبة المتآلفة لحضارة ما. وفي تشكيل إرادتها.» (بن نبي، م،دون سنة: 83)

لا يختلف محمد إقبال عن مالك بن نبي في نظرته إلى العلم والتاريخ، باعتبار كلاّ منهما مهم وأساسي في الحضارة، فالعلم والتجارب العلمية عند الأول ميدانها الواقع والتجربة الواقعية وهي وسيلة لبلوغ الحقيقة، أما الدين والتجربة الدينية ميدانها الروح، وهي وسيلة لبلوغ الحقيقة، فهما معا لا يتعارضان بل يتكاملان ولهما نفس الهدف، هو الكشف عن الحقيقة، التي هي في أصلها روحية. وأما التاريخ فهو مصدر من مصادر المعرفة إلى جانب الرياضة الروحية والطبيعة.« والتاريخ أو بتعبير القرآن أيام اللّه، هو ثالث مصادر المعرفة الإنسانية بناء على ما جاء في القرآن.».(إقبال، م، 1955: 159)ويشكل العلم بمفهومه الواسع محرك النهضة وصانع الحضارة عند مالك بن نبي، والطابع الذي تتميز به الحضارة الغربية الحديثة والمعاصرة علمي محض. أما التاريخ فهو عنده الإطار الشامل لكل فعل حضاري ولكل حركة نهضة تدخله، فالتاريخ هو الإنسان والمجتمع والحضارة والتقدم والرقي في الحياة.

قام كل من محمد إقبال ومالك بن نبي بفحص وتمحيص واقعه المعاش، فكرياً واجتماعياً واقتصادياً ودينياً، وقام بالمراجعة والتقويم للفكر الإصلاحي الذي شهده عصره، وانتهى إلى غياب الرؤية الفلسفية إلى الإنسان والتاريخ والحضارة، وانصبت فكرة الإصلاح والتجديد عنده على مراجعة وتقويم ونقد جوانب عديدة من الفكر الإسلامي القديم، مثل فكر ابن خلدون ونظريته في الدولة، وعلى المحاولات الإصلاحية لزعماء الإصلاح والتجديد في العصر الحديث، مثل دعوة جمال الدين الأفغاني، ودعوة محمد عبده، وغيرهما، خاصة دعاة المسالمة مع الاستعمار والفكر الغربي. قام محمد إقبال بنقد جوانب كثيرة من الفكر الإسلامي وأخرى في الفكر الغربي كما انتقد الحركة الإصلاحية الحديثة وفي العالم الإسلامي،وكتابه " تجديد التفكير الديني في الإسلام " يدل على ذلك وكان يقتبس من الفكر الغربي ولا يرى في ذلك حرجا، مادام لا يتعارض مع القيم والمبادئ التي يؤمن بها، ولا تتعارض مع الإسلام كما انتقد بشدة الفكر الإلحادي الغربي، وسار في طريقه فيلسوف الحضارة مالك بن نبي.

كلاهما استطاع بمحاولته الفكرية الإصلاحية ونظريته الفلسفية أن يقدم رؤية فلسفية للإنسان والتاريخ والحضارة، وكلاهما له فكر قوي، وفلسفة تميزت بالمتانة والدقة والعمق. ففلسفتهما تلتقيان في الفضاء النظري والمنبت والمبتغي. هذا المبتغي الذي يحدده إقبال بقوله: « فعلى المسلم اليوم أن يقدّر موقفه، وأن يعيد بناء حياته الاجتماعية على ضوء المبادئ النهائية، وأن يستنبط من أهداف الإسلام، التي لم تتكشف بعد إلاّ تكشفا جزئيا، تلك الديمقراطية الروحية التي هي منتهى غاية الإسلام ومقصده». (بن نبي، م، دون سنة: 208) وهو مبتغي ومقصد مالك بن نبي الذي يقول فيه: « وإنّما لا يجوز لنا أن يظل سيرنا نحو الحضارة فوضويا، يستغله الرجل الواحد، أو يظلله الشيء الواحد، بل ليكن سيرنا علميا، عقليا، حتى نرى أن الحضارة ليست أجزاء مبعثرة ملفقة، ولا مظاهر خلاّبة، وليست الشيء الوحيد، بل هي جوهر ينتظم جميع أشيائها وأفكارها وروحها ومظاهرها، وقطب يتجه نحوه تاريخ الإنسانية». (بن نبي، م، 1969: 239)

2- الاختلاف: الحضارة بين النظرة الفلسفية الصوفية و بين الفكر العلمي المعاصر.

إذا كان فكر محمد إقبال قد التقى في أكثر من نقطة مع أفكار مالك بن نبي، ومع رؤيته إلى التاريخ والحضارة، وهو أمر طبيعي جدّا له أسبابه وظروفه الموضوعية، لأن الأمر يتعلق بمحاولتين فكريتين فلسفيتين لمفكرين من عصر واحد، ولهما مشاكل وهموم واحدة، ولهما انتماء ديني وتاريخي واحد، ولهما تطلعات وآمال واحدة. وإذا كان المحيط الثقافي والاجتماعي الذي يظهر فيه فكر المفكر أو فلسفة الفيلسوف يترك بصماته وبقوة، في الاتجاه المؤيد أو في المسار المعارض على ذلك الفكر، وعلى تلك الفلسفة، فإن الفكر الإصلاحي في العصر الحديث في العالم الإسلامي، وفي أيامنا هذه من إنتاج البيئة الذي يعيش فيه زعماء الإصلاح ودعاة التجديد. ويرتبط هذا الفكر كذلك بزعمائه ودعاته. وبشخصياتهم ومواهبهم وعبقرياتهم في دراسة الواقع، وحصر دواعي الداء، وتحديد كيفيات العلاج، وأسلوب الدعوة ومنهج التجديد وطبيعته والتحكم فيه، فكل هذا ينطبق على فلسفة إقبال وفكر مالك بن نبي، وعليه ففلسفة إقبال تختلف عن نظرية الحضارة والتجديد الحضاري عند مالك بن نبي في أكثر من نقطة، رغم ما يجمع الشخصيتين من روابط تاريخية ودينية متينة، هذه الروابط التي تجلّت و بوضوح في فكر كل منهما، من حيث مرجعيته الفكرية والتاريخية والاجتماعية والعقيدية، ومن حيث المشكلات التي واجهته وعالجها، ومن حيث المبادئ والأسس والمنطلقات التي انطلق منها، ومن حيث العديد من النقاط التي

تخص المنهج المتبع في البحث والدراسة، أو في اقتراح الحلول للمشكلات، ومن حيث الأهداف والغايات التي كان يسعى إليها.

إن التماثل الفكري والتقاطع الفلسفي بين فلسفة محمد إقبال وفكر مالك بن نبي لم يمنع الاختلاف بينهما في أكثر من مسألة، وفي أكثر من حل، وفي المنهج وأمور أخرى، وإذا كان فكر المفكر مرتبط بمحيط صاحبه الاجتماعي، حقيقة ثابتة، فإن بيئة محمد إقبال الاجتماعية في الهند تختلف بعض الشيء عن محيط مالك بن نبي الاجتماعي في شمال إفريقيا، هذا الاختلاف في بعض العادات والتقاليد والأعراف، وعند قراءة حياة إقبال في الهند وسفره إلى الخارج ونقرأ حياة مالك بن نبي وتنقلاته من خلال كتابه " مذكرات شاهد للقرن " وهو يروي قصة حياته بشيء من التفصيل والدقة يتضح التمايز بين الشخصيتين الناتج عن التباين الطفيف بين الوسطين الاجتماعيين، وسط إقبال ووسط مالك. وطبيعي أن إقبال تأثر بالظروف المحيطة به في الهند وباكستان،كما تأثر كغيره بظروف العالم الإسلامي وما تميز به من ضعف وتخلف وانحطاط، وبظروف العالم الأوربي الغربي وما تميز به من تقدم علمي وتكنولوجي وتحضر. ومالك بن نبي هو الآخر تأثر بالظروف المحيطة به في الجزائر وفي العالم العربي والإسلامي وبما يجرى خارج الجزائر والعالم الإسلامي، ذلك التأثر انعكس في فكر كل واحد منهما وبان في فلسفته.

لقد تفلسف محمد إقبال وتفلسف بعده مالك بن نبي، ولكن لكل منهما فلسفته الخاصة به، فلسفة لها طابعها الخاص والمتميز، ولكل منهما فكر طبع بطابع معين. أما فلسفة إقبال جاءت في مستوى الفلسفات القديمة، لكنها بمفاهيم ورؤية جديدة مزجت بين قيم الفكر الغربي وقيم الإسلام الذاتية، ومن حيث القوة والعمق، ومن حيث فضاء التفلسف النظري، ومن حيث النقد والمراجعة والتقويم في الفكر الإنساني القديم، والحديث، ومن حيث الموضوعات وهي: الإنسان، النفس، الوجود، الذات الكلية وغيرها نجد فلسفة إقبال تشبه فلسفة الكندي أو الغزالي. فقد درس الفكر الإنساني عامة بما في ذلك الفكر الإسلامي عبر التاريخ، كما اطلع بعمق على الفكر الغربي، وكان مسلما محبّا لدينيه، راح ينسق ويّوفق بين محتويات الحضارة الغربية، والفكر الغربي، وبين القيم الدينية والتاريخية في العالم الإسلامي لا على أساس موائمة الإسلام لتلك القيم الجديدة، ولكن على أساس الاستفادة من الحضارة الغربية والفكر الغربي بما يتلاءم مع القيم الذاتية للإسلام التي تتكشف شيئا فشيئا، وكان بهذا العمل في كتابه " تجديد التفكير الديني في الإسلام"، يشبه الغزالي. في كتابه " إحياء علوم الدين"، ويشبه الفارابي والكندي وابن رشد في محاولة التوفيق من الفلسفة اليونانية

ورؤية الإسلام إلى الكون. فقط يختلف إقبال عن هؤلاء في كونه أستخدم معجميه هيجل وبرغسون وهوايتد، وغيرهم من الفلاسفة والمفكرين المحدثين، أما هؤلاء فاستخدموا معجمية أفلاطون وأرسطو وأفلوطين، وغيرهم من فلاسفة اليونان. والميزة الطاغية في فلسفته التأمل النظري وسعة النظر الفلسفي وعمقه، ورحابه التفكير الميتافيزيقي، « فقارئ " إعادة تركيب الفكر الديني في الإسلام "، لا يتمالك الشعور الطاغي بسعة علمه، وبرحابة تأملاته الميتافيزيقية والدينية. » (فخري،م، 1974: 482)

أما المحاولة الفكرية الإصلاحية التجديدية التي جاء بها مالك بن نبي، فتميزت بطابعها العلمي، وهذا أمر طبيعي لأن تكوين صاحبها علمي، فهو خريج كلية الهندسة الكهربائية، وهي محاولة ذات طابع اجتماعي. لم يتفلسف في النّفس والوجود واللّه، مثلما فعل إقبال، بل ركز على الحضارة من حيث عوامل و شروط قيامها، وأسباب انهيارها، كما ركز على ما يسمح للمجتمع بالازدهار والتطور، وما يمنعه من ذلك، وما يدفعه إلى السقوط في الهاوية. وضع جميع مؤلفاته في سلسلة " مشكلات الحضارة "، وكتابه " شروط النهضة " يتضمن النظرية الجديدة التي جاء بها، وتخص الحضارة من حيث شروطها وأطوارها وعناصرها ومشكلاتها، وجميع الكتابات الأخرى كانت في هذا الاتجاه، على الرغم من أنها ركزت على العالم الإسلامي وظروفه وأحواله ومشاكله، وسبل ولوازم الخروج من أزمته. و لم تكن أفكاره تتميز بالعمق الفلسفي، والتأمل الميتافيزيقي والنقد العميق الذي عرفته فلسفة إقبال، لكن هذا لا يعني أن فكر مالك بن نبي كان خاليا من الطابع الفلسفي، والدقة والعمق والنقد، بل فلسفته تمثل رؤية ذات نسقية فلسفية إلى التاريخ والحضارة، والحياة في جوانبها الروحية والاجتماعية والمادية. والطابع الفلسفي العلمي الاجتماعي الذي تميز به فكر مالك قال عنه الباحث أنور الجندي: « مالك بن نبي يختلف كثيرا عن الدعاة المفكرين والكتاب، فهو فيلسوف أصيل له طابع العالم الاجتماعي الدقيق، الذي أتاحت له ثقافته العربية والفرنسية أن يجمع بين علم العرب وفكرهم المستمد من القرآن والسنة، والفلسفة والتراث العربي الإسلامي الضخم، وبين علم الغرب وفكرهم المستمد من تراث اليونان والرومان والمسيحية.» (السحمراني،أ، 1986: 22) يتضح مما سبق أن إقبال فيلسوف، وفلسفته طابعها ميتافيزيقي، وعلى النمط القديم لكنه بمناهج ومقولات جديدة. أما مالك بن نبي فيلسوف اختص في الحضارة وكان شبيها بعالم الاجتماع، لطغيان الأسلوب العلمي على فكره، ولم يمنعه ذلك من تقديم رؤية فلسفية إلى الحضارة والتاريخ والتقدم.

وإذا اختلف فكر إقبال الإصلاحي عن فكر مالك بن نبي في طابعه ونمطه، فجاء الأول فلسفيا ميتافيزيقيا عالج أمهات القضايا الفلسفية، وجاء الثاني علميا اجتماعيا عالج قضية التخلف والحضارة كما هما في المجتمع والتاريخ، فطبيعي أن يكون هناك اختلاف بينهما في المنهج واللّغة. أما بالنسبة لمنهج إقبال فهو التأمل الفلسفي الميتافيزيقي، القائم على التحليل والنقد والاستنتاج. والمبني على المراجعة والتقويم والهدم، وإعادة البناء. وكان إقبال شاعرا، انتهج أسلوب الشعر لنشر دعوته وتوصيل محاولته الإصلاحية إلى الغير، وكان لشعره صدى واسعا في البلاد الإسلامية، وغيرها. والطابع النظري الميتافيزيقي طبع طريقة إقبال في التفلسف بطابع النظر العقلي إلى مختلف القضايا، وطبع لغة هذا التفلسف، وهذه المحاولة الفكرية، ولما كان صاحبها قد أخذ من روافد متعددة ومتنوعة، فجاءت مقولاته متعددة ومتنوعة، ففي فكره نجد مقولات الفكر والعلم اليونانيين،ونجد مقولات الفلسفة الإسلامية، ومقولات الفكر الغربي الحديث، هذا التنوع وهذا الثراء قلّما نجه عند واحد من المفكرين المحدثين. أما منهج مالك بن نبي فمطبوع بطابع فكره ونظريته، والموضوعات التي ركّز عليها، وتميز هذا المنهج بارتباطه بالإسلام وبالفكر الإسلامي القديم والحديث، وبالفكر الغربي، كما ارتبط بواقع المسلمين الديني والأخلاقي والاجتماعي والثقافي والاقتصادي والفكري، وقام على التحليل العلمي لحوادث التاريخ والواقع، وعلى الصرامة المنطقية في حصر المشكلات وبحثها وتحديد الحلول والمخارج من هذه المشكلات. كما قام على النقد والتقويم للفكر الإصلاحي القديم والحديث من جهة، ولفلسفة التاريخ عند مفكري الإسلام قديما وعند مفكري الغرب حديثا. وتميز هذا النقد بالفحص والتمحيص، وبالموضوعية وبالصرامة المنطقية، ونظرا لطبيعة هذا الأسلوب العلمية النقدية المنطقية، تمكن من السيطرة على جوانب المشكلة الرئيسية في البحوث التي قام بها مالك بن نبي، وتمكن من الوصول إلى نظرية جديدة في الحضارة، لم يسبق لها مثيل، هذه النظرية يتضمنها كتاب " شروط النهضة " وتتضمن بعض جوانبها كتب أخرى. ولفكر مالك بن نبي معجميته التي تتعدد وتتنوع بتعدد وتنوع وغنى وثراء فكره، وهي معجمية مرتبطة بالعلوم الإنسانية ومجالاتها، فهي معجمية علمية، وليست ذات طابع فلسفي محض، أي بالمعنى الكلاسيكي، مثلما هو الحال عند إقبال. حيث تأخذ من علم النفس وعلم الاجتماع وعلم الاقتصاد وعلم السياسة، وكذلك تأخذ من الفيزياء والكيمياء والبيولوجيا، وغيرها كما تأخذ من الإسلام والتاريخ الإسلامي،وواقع المسلمين، وحضارة أوربا الحديثة والفكر الغربي الحديث،وإذا كانت مقولات إقبال هي مفاهيم فلسفية غربية

تعبر عن فكر إسلامي. فإن مقولات مالك بن نبي هي مقولات علمية تعبر عن نظرية جديدة وفكر فلسفي إسلامي، جاء لإنقاذ الأمة من محنتها.

إنّ فكرة الإصلاح والتجديد في فلسفة إقبال تمثل جزءا من هذه الفلسفة، فهي تدخل في إطار نظرته ورؤيته إلى الحياة، والإنسان والذات والوجود وغيرها، وليست فكرة مستقلة بذاتها، فهي ارتبطت بفلسفته عامة، نستشفها من نظرته إلى الذات وإلى الوجود، وإلى الحياة، كما نستشفها من نظرته إلى الدين وإلى الإسلام خاصة، وإلى الرياضة الروحية، وغيرها من المسائل التي تدخل في صميم الفلسفة. كما ترتبط كذلك بالدراسة التحليلية النقدية العميقة التي قام بها إقبال للاتجاهات الفلسفية القديمة والحديثة، كالفلسفة اليونانية،ومنها بعض الجوانب في فلسفة سقراط، وأخرى في فلسفة أفلاطون، وأخرى في فلسفة أرسطو. ومثل الفلسفة الإسلامية ومنها بعض الجوانب في التصوف، وفي فلسفة أبي حامد الغزالي، وفي فكر ابن خلدون وغيره. وكذلك انتقد الفكر الفلسفي الغربي وكذلك الحضارة الغربية، وما تميز الإنسان الأوربي المعاصر، صاحب هذا الفكر وهذه الحضارة، ذات المنتجات البراقة والمغرية. يظهر من هذه المعطيات أن فلسفة إقبال ذات طابع ديني تميزت بالشمول والعموم في عصر التخصص في البحوث والدراسات العلمية والفلسفية. وهي تختلف إلى حد ما بطابعها هذا عن فلسفة مالك بن نبي، التي تمثل فكرا متميزا قام هو الآخر على المنهج العلمي، وعلى التحليل والنقد، ولواقع الشعوب المتخلفة عامة، وللعالم الإسلامي الذي طال تخلفه، وطالت أزمته. وللفكر الإصلاحي في عصره، ولحضارة أوربا الحديثة وللفكر الغربي الحديث، وانطلاقا من ذلك ظهرت نظرية الحضارة، كرؤية جديدة إلى التاريخ، وكحل لأزمة التخلف والانحطاط في حياة الإنسان، ولم تكن هذه الدراسة ولا هذه الرؤية في مستوى الشمول الذي عرفته فلسفة إقبال، ولا هي فلسفة دينية، هدفها إصلاح الفكر الديني، بل نظرية خاصة بالحضارة، تدخل في إطار فلسفة التاريخ، غايتها حل مشكلات الحضارة وهي مشكلات مرتبطة بحياة الإنسان اليومية في جميع ميادينها، روحيا واجتماعيا وماديا. ويظهر التباين بين فلسفة إقبال وفكر مالك بن نبي في هذه المسألة من خلال ما يصرح به المفكران. يقول محمد إقبال: «أحاول بناء الفلسفة الدينية بناء جديدا، آخذا بعين الاعتبار المأثور من فلسفة الإسلام، إلى جانب ما جرى على المعرفة الإنسانية من تطور في نواحيها المختلفة. واللحظة الراهنة مناسبة كل المناسبة لعمل كهذا.». (إقبال، م، 1955: 02) .أما مالك بن نبي فيقول:« ولو حللنا حياة مجتمعنا لوجدنا فيه ألوانا جديدة تدل في جملتها على نزعات متباينة، واستعدادات فردية متنافرة، في مجتمع فقد توازنه القديم، وببحث الآن عن توازن جديد ... وأنّ قضيتنا منوطة بذلك

التركيب الذي من شأنه إزالة المتناقضات والمفارقات المنتشرة في مجتمعنا اليوم. وذلك بتخطيط ثقافة شاملة، يحملها الغني والفقير، والجاهل والعالم، حتى يتم للأنفس استقرارها وانسجامها مع مجتمعها، ذلك المجتمع الذي سوف يكون قد استوى على توازن الجديد.» (بن نبي، م، 1969: 239)

تصدى محمد إقبال للفكر الغربي الإلحادي، وعمل على إبراز ما فيه من نقص و اعوجاج، له أثر سلبي كبير على حياة الأوروبي المعاصر، وأثره سلبي وأكبر على حياة المسلم المعاصر، وتعمق في التحليل والنقد بعد الفهم والاستيعاب، و تجلى ذلك بوضوح في مؤلفه " تجديد التفكير الديني في الإسلام ". وهي محاولة فكرية رفيعة المستوى، وصيحة فيلسوف في وجه حاملي الفكر الغربي الإلحادي في أوربا وفي العالم الإسلامي، من أبناء المجتمع الإسلامي، ودعوة إلى الإصلاح والتجديد وفق ما تمليه السنن الكونية، ووفق القيم الذاتية للإسلام ومبادئه الثابتة وأهدافه القريبة والبعيدة. ويقول الأستاذ محمد البهي في هذه المحاولة: «**إنّ** إقبال في تجديد التفكير الديني في الإسلام، كان جامعيا في محاولته ... في عمله الفكري للخاصة، وفي اعتبار هذا العمل لجيل معين، وهو جيل التفكير الوضعي، أو التفكير المادي الإلحادي.» (الباهي، م، 1973: 495) أما مالك بن نبي فتصدي لظاهرة التخلف في العالم المتخلف عامة، وفي العالم الإسلامي بصفة خاصة، كما تجند لوضع خطة فكرية وفلسفية وإستراتيجية لبناء الحضارة، والتمكن من المدنية والتقدم الاجتماعي. وتمحورت فلسفته ككل على مسألتين، مسألة التخلف والانحطاط، من حيث أسبابه ودوافعه وسبل القضاء عليها والوقاية منها، ومسألة الحضارة من حيث شروطها وعواملها تكوينها وازدهارها وعوامل انهيارها وأفوالها. والأسلوب الذي سلكه في طرح المشكلات ومعالجتها ومناقشتها وما تميز به، من مواصفات علمية وموضوعية ومنطقية جعل محاولته موجهة للجميع، وليست للخاصة مثلما هو حال محاولة إعادة تركيب الفكر الديني في الإسلام لمحمد إقبال. وعرف فكر مالك بن نبي إقبالا كبيرا من قبل القراء والمثقفين، سواء في حياة "مالك" ومن خلال محاضراته في الجزائر وخارج الجزائر، خلال الاستعمار وبعد الاستقلال، أو من خلال الندوات التي كان يعقدها في بيته، في الجزائر العاصمة، كما نال فكره إعجاب العديد من تلاميذه وأصدقائه المقربين إليه الذين دافعوا عنه وذكروه وذكروا قوته في أكثر من مناسبة وفي أكثر من كتاب. وعليه، فإذا كان محمد إقبال، قد كتب للخاصة من أصحاب الفكر الوضعي، المادي الإلحادي، وجاءت فلسفته تتميز بعمق التأمل الفلسفي، ورحابة التفكير الميتافيزيقي، فإن الإصلاح والتجديد في فلسفة مالك بن نبي استهدف القضاء على الجهل والجوع والمرض والاستعمار والقابلية

للاستعمار، وغيرها من ظواهر التخلف، التي يعاني منها العالم الإسلامي المعاصر، ويستهدف وضع نظرية في الحضارة والتاريخ تضع حدّا للتخلف، وتفتح الآفاق والمجال واسعا لبناء الحضارة وازدهارها واستمرارها، وإن كان يلتقي في فكره هذا، مع فلسفة إقبال في أصولها و مقاصدها.

ومما يتميز به فكر محمد إقبال الإصلاحي، وبالنسبة لروافده أنّه استمد الكثير من المفاهيم والمناهج من الفكر الغربي وتأثر بفكر وأراء المستشرقين، وكان إقبال يناقش كبار الفلاسفة وينقد أفكارهم، وينسق، ويجمع بين هذه الأفكار حتى قال عنه الأستاذ ماجد فخري في كتابه " تاريخ الفلسفة الإسلامية ": «فهو عوضا عن أن يستند إلى التاريخ في التعبير عن النظرة الإسلامية إلى الكون تعبيرا عصريا، جريا على سنة أمير على، يعمد إلى الاقتباس من التراث الفلسفي الغربي دون تحفظ، ولم يكن غرضه من ذلك التدليل على أصالة النظرة الغربية، بل كان بالأحرى اتفاقها مع الرؤيا القرآنية للكون» . (فخري،م، 1981: 477) بينما تناول "مالك" ظاهرة التخلف وقضية الحضارة في إطار فلسفة التاريخ، ومن خلال نقد فلسفة التاريخ عند القدماء، ولدى المحدثين، وإن كان قد اقتبس، فليس من جميع الفلسفات بل من فلسفة التاريخ ومعتمدا على ما يخدم نظريته ورؤيته إلى الحضارة والإنسان والتاريخ.

ارتبط الإصلاح والتجديد في فلسفة إقبال، بالإسلام أولا وبمناهج ونتائج الفكر الغربي الحديث، والحضارة الغربية الحديثة ثانيا. أي بمحاولة فكرية وفلسفية، بكل ما تحمله النظرة الفلسفية من ميزات ومواصفات، وبكل ما يتطلبه النسق الفلسفي من انسجام، وتكامل في بنيته، وبين عناصر ومحتويات هذه البنية. وجاء هذا البناء الفلسفي يتضمن بناء الفلسفة الدينية والفكر الديني، بناء جديدا، يرفض الفكر الديني القائم في حياة المسلمين ولدى المفكرين المسلمين وزعماء الإصلاح، كما يرفض العديد من جوانب الفكر الديني التي ورثها واستقرت في مجاله، وفي الوعي الإسلامي المعاصر، ويرفض جوانب كثيرة في الفكر الغربي، خاصة الفكر الوضعي الإلحادي الذي يرد الحياة إلى أسس وأصول مادية محضة، هذا الرفض جاء بعد عملية النقد، أو الهدم التي قام بها إقبال، ثم بنا فلسفة دينية وفكرا إصلاحيا تميّز كل منهما بالجديد في هيكله ومحتوياته، كما تميز بكونه فكرا فريدا في نوعه من حيث عمق النقد ودقته، وسعة الفهم والاستيعاب، وقوة في طرح المشكلات ومعالجتها، ورحابة التأمل الفلسفي الميتافيزيقي، ومتانة اللغة، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، الدقة والعمق في حصر مشكلات الإنسان المسلم المعاصر الذي يعيش التخلف، وتحديد مشكلات الإنسان الأوربي المعاصر الذي يعيش الحضارة والفراغ الروحي، كما تمكن من وضع يده على

الكثير من الحلول لتلك المشكلات داعيا إلى بلوغ السمو الحضاري، الروحي والمادي معا.

وإذا كان إقبال قد توصل إلى تركيب جديد للفكر الديني في الإسلام، أو بناء جديد للفلسفة الدينية في الإسلام، وكانت غايته المراجعة والتقويم والمتابعة أولا ثم إعادة البناء ثانيا و كانت وراء هذا الفعل الفكري وضعية المسلم والظروف المحيطة به في الداخل والخارج، وهي الوضعية والظروف والدوافع التي كانت وراء فلسفة مالك بن نبي التي تميزت بأنها ليست محاولة لبناء التفكير الديني على منوال محاولة إقبال، بل هي محاولة جاءت بالجديد حول ظاهرتي التخلف والتحضر، وعلى ضوء التاريخ، وواقع أوروبا صاحبة الحضارة الحديثة، واقع العالم الإسلامي المتخلفو تعلق الأمر هنا بتحديد تميز هو الآخر بالموضوعية، والدقة والعمق والعلمية، والصرامة المنطقية، لمشكلات الإنسان عامة والإنسان المسلم والأوربي خاصة، وهي في أصلها مشكلات حضارة لا غير، ولحلول غاية في الموضوعية، والدقة، ومنسجمة مع ما تتطلبه حياة الفرد، وتقتضيه حاجات المجتمع، وينسجم مع سنن الحياة التي يقرها الإسلام، وشكلت أفكار مالك بن نبي ومنهجه وخطته في الإصلاح والتجديد نظرية فلسفية جديدة، قائمة بذاتها، تحدد بدقة وبموضوعية أسباب التخلف وسبل القضاء عليه، وشروط الحضارة وأسباب انهيارها، وفي نظره كل الحضارات والمدنيات التي شهدها تاريخ الإنسانية لا تخرج عن خط نظريته، حيث يقول: «تستطيع أن نقرر أن المدنيات الإنسانية حلاقات متصلة تتشابه أطوارها مع أطوار المدنية الإسلامية والمسيحية، إذ نبدأ الحلقة الأولى بظهور فكرة دينية، ثم يبدأ أفولها بتغلب جاذبية الأرض عليها، بعد أن تفقد الروح ثم العقل ». (بن نبي،م، 1969: 78.79)

لقد اختلف إقبال في نظرته إلى الإصلاح وإلى طبيعة التجديد، مع نظرة مالك بن نبي إلى ذلك، هذا الاختلاف يتبيّن من خلال الفرق و التباين بين محتويات كتاب محمد إقبال " تجديد التفكير الديني في الإسلام " ومحتويات مؤلف مالك بن نبي " شروط النهضة " سواء من حيث طرح المسائل وتناولها، أو من حيث طبيعة المنهج المتبع، ومواصفاته، أو من حيث طبيعة التجديد الذي أراده كلّ منهما. فالإصلاح دعا إليه إقبال و بمنهج فلسفي يقوم على أسس روحية، مثالية دينية ذاتية فردية، وله أهداف روحية محضة، تشارك في أعداده التجربة الواقعية و التجربة الصوفية الروحية، ففي الطابع الروحي للإصلاح وفرديته يرى إقبال أن الإنسانية « تحتاج اليوم إلى ثلاثة أمور: تأويل الكون تأويلا روحيا، وتحرير روح الفرد، ووضع مبادئ أساسية ذات أهمية عالمية توجه تطور المجتمع الإنساني على أساس روحي» (إقبال، م، 1955،ص207)وفي دور الدين في

بناء الإنسان والحضارة يقول إقبال: « فلا أسلو ب التصوف في العصور الوسطى، ولا القومية، ولا الاشتراكية، بقادرة على أن تشفي علل الإنسانية، البائسة ... والدين هو في أسمى مظاهره ليس عقيدة فحسب أو كهنوتا أو شعيرة من الشعائر. هو وحده القادر على إعداد الإنسان العصري إعدادا خلقيا يؤهله لتحمل يؤهله لتحمل التبعة العظمى التي لا بد أن يتمخض عنها التقدم العلمي الحديث، وأن يرد إليه تلك النزعة من الإيمان الذي تجعله قادرا على الفوز بشخصيته في الحياة الدنيا، والاحتفاظ بها في دار البقاء. إنّ السمو إلى مستوى جديد في فهم الإنسان لأصله و مستقبله من أين جاء، وإلى أين المصير، هو وحده الذي يكفل له آخر الأمر، الفوز على مجتمع يحركه تنافس وحشي، وعلى حضارة فقدت وحدتها الروحية بما انطوت عليه من صراع بين القيم الدينية والقيم السياسية، والدين كما بيّنت من قبل من حيث هو سعي المرء سعيا مقصودا للوصول إلى الغاية النهائية للقيم، فيمكنه بذلك أن يعيد تفسير قوى شخصيته هو حقيقة لا يمكن إنكارها. » (إقبال، م، 1955: 217). وفي الطابع الفردي للحياة يقول إقبال «فالحياة كلها فردية، وليس للحياة الكلية وجود خارجي، حيثما تجلت الحياة تجلت في شخص، أو فرد أو شيء..والخالق كذلك فرد ولكنه أوحد لا مثيل له ». (عزام ع، 1954: 56) وسبيل التجديد هو تغيير الذات في الداخل ثم الانتقال إلى خارج الذات حيث الكون وحيث التسخير والتكيف. والتغيير والتجديد والبناء يكون بالعمل. « فإذا لم ينهض الإنسان إلى العمل، ولم يبعث ما في أعماق كيانه من غنى ... أصبحت روحه جامدة جمود الحجر و هوى إلى حضيض المادة الميتة».(إقبال، م، 1955: 20).

فالإصلاح والتجديد في فكر إقبال يلازم النقد وإعادة البناء، ويجري في الذات ثم الواقع، ويقوم على أسس فردية روحية دينية.والطريق إليه التجربة العلمية، ومجالها الواقع، والتجربة الصوفية الدينية، وميدانها الروح، ومبتغاه ومقصده هو مبتغى ومقصد الإسلام، وهو الوصول بالإنسان السمو الروحي والأخلاقي، وبلوغ الديمقراطية الروحية التي لم تصل إليها مثالية أوربا، التي فقدت معنى وجودها، لكونها أنتجت ذاتا ضالة، راحت تفتش عن مكان لها، بين ديمقراطيات خالية من التسامح والتعاون والتكامل والتراحم، وكان كل همها هو استغلال الإنسان للإنسان وصارت تلك المثالية أكبر عائق أمام الإنسان في سعيه نحو الرقي والسمو في الأخلاق و الحضارة.

أما الإصلاح الذي دعا إليه مالك بن نبي فله طابعه الخاص، وإن كان يلتقي مع المحاولة الإصلاحية عند إقبال في عدة نقاط. انطلق فكر مالك بن نبي من واقع العالم الإسلامي ومن تخلفه ومشاكله اليومية، في الدين والاجتماع والثقافة والسياسة والأخلاق وغيرها، وهي مشكلات حضارة في الأصل والجوهر. قام هذا الفكر بتحليل واقعه

وتحليل واقع الأمم المتحضرة في عصره، وانتقدهما بطريقة علمية، كما حلل وانتقد الحياة الفكرية في العالم الإسلامي المتخلف، وفي أوربا الحضارة. وركز على استيعاب ونقد الفكر الإصلاحي الحديث والمعاصر في العالم الإسلامي، وفلسفة التاريخ في أوربا من خلال رؤية سبنجلر، ومنظور كيسرلنج، ونظرية توينبي، وفيكو وغيرهم. انبثقت عن هذه الدراسة النقدية التي قام بها مالك بن نبي نظريته في الحضارة، وفي التجديد الحضاري، هذه النظرية التي تؤكد على البعد الروحي الديني للحضارة، لكون الفكرة الدينية تؤلف بين عناصرها، وتوجد الانسجام بين شروطها ولوازمها، كما تضمن لها البقاء والاستمرار والازدهار. ولا حضارة في غياب العدة الدائمة وتمثل عناصر الحضارة الثلاثة، الإنسان والتراب والوقت، وهي ذات طبيعة اجتماعية تاريخية بالدرجة الأولى، وتوفر الفكرة الدينية والعدة الدائمة، يقتضي فعل التغيير الذي يجرى في داخل نفس الإنسان، وفي أعماق ذاته، ثم يجرى في المحيط الذي يعيش فيه، وهي سنة سنّها الله لتسير عليها الحياة، ويقررها القرآن في قوله تعالي:« إنّ الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم.» (الرعد، الآية 11.) والتغيير يسمح للإنسان بأن ينتج حضارته بنفسه، بعيدا عن الاستيراد والتبعية والمديونية الحضارية، فالحضارة الحقة هي التي تلد منتجاتها، وليس العكس. لذا يجب التمييز بين البناء والتكديس، والأخذ بالبناء لا التكديس، فمن السخرية والسخافة حسب مالك بن نبي عكس القاعدة التي تقول <الحضارة تلد منتجاتها>. ويبقى التوجيه شرطا ضروريا لكل صحوة أو نهضة حضارية، توجيه الإنسان، وتوجيه الأفكار وتوجيه الأشياء. هذه الحضارة عبارة عن تغير يجرى على الإنسان في عالمه النفسي الداخلي، وفي العالم الخارجي، أساسه روحي، يظهر في الحياة بجميع مجالاتها. و يتجلى في النهاية في صورة تقدم وازدهار روحي، وتقدم وازدهار مادي، ومتى حصل التوازن والانسجام والتكامل بين الجانب الروحي والجانب المادي، وازدهر كل منهما، بلغ الإنسان قمة التحضر التي هي غاية التاريخ والمجتمع ومبتغى الإنسان.

الاستنتاج: التكامل بين النظرية و التطبيق.

إنّ الفكر الإصلاحي عند محمد إقبال، أو عند مالك بن نبي، أو عند غيرهما من المصلحين في الفكر الديني الإسلامي، وفي المجال الاجتماعي والسياسي والاقتصادي، هو من نوع واحد، فالنقاط والروابط التي تجمع هذه الأصناف أكثر بكثير من النقاط التي تفرق بينها. فهي أشكال من التفكير، تعددت وتنوعت حسب تعدد أصحابها، وتنوعت حسب البيئات التي ظهرت فيها، وحسب كافة الظروف المحيطة بها. إذ لا ينفصل البتة الفكر الإصلاحي عن الواقع الذي ينمو فيه، إلى أن

يكبر ويتبلور، فيأخذ مكانه في الحركة الإصلاحية القائمة. هذا ما يقال عن الحركة الإصلاحية الحديثة والمعاصرة في العالم الإسلامي، وعن فلسفة محمد إقبال ونظرية مالك بن نبي في الحضارة، باعتبار هذان النمطان من الفكر الإصلاحي جزء من الحركة الإصلاحية الإسلامية في العصر الحديث.

ارتبطت فكرة الإصلاح والتجديد عند إقبال ومالك بتاريخ المسلمين وواقعهم في العصر الحديث، حيث شهد المسلمون قديما حضارة راقية في جميع مجالات الحياة، ففي مجال الفكر سجل لها التاريخ ازدهارا كبيرا لا نظير له في الفلسفة والعلوم والفنون والآداب، فهي استوعبت علوم وفلسفات القدماء وزادت عليها، كما سجل لها قوة كبيرة في التنظيم السياسي والاجتماعي والعسكري، وقوة أكبر في الحياة الاقتصادية، ناهيك عن التطور الروحي والسمو الأخلاقي، الذي يتحلى في تمسك المسلمين بتعاليم وقيم ومبادئ وأخلاق دينهم. أما واقع المسلمين في العصر الحديث فهو نموذج في الضعف والتخلف والانحطاط في جميع المجالات، ففي الحياة الثقافية والفكرية بقي المسلمون على فكر وثقافة عهدهم القديم، فلم يعرفوا الإبداع والتجديد في ذلك. أما الحياة الاجتماعية فميزاتها التشتت والتمزق في شبكة العلاقات الاجتماعية، ناهيك عن الفقر والجهل والأمراض وانحلال الأخلاق وتفسخها، فعلاً إنتاج ولا وسائل إنتاج في الحياة الاقتصادية تسمح ببناء اقتصاد يفي بالحاجات الضرورية، وببنائه على معايير علمية تضمن النماء والازدهار داخل المجتمع، الأمر الذي سهل المهمة على دعاة ومنفذي الاستعمار للاستيلاء على كافة الأقطار الإسلامية، واستغلال شعوبها ونهب ثرواتها، والسعي الحثيث لطمس قيم وعناصر هويتها من لغة ودين وقيم أخرى. كل هذا كان يجري في وقت كانت فيه أوروبا الغرب تشهد نهضة حضارية، علمية وتكنولوجية، وتعرف فكرا جديدا في الأخلاق والسياسة والاجتماع، وفلسفة طبعها العصر بطابعه. وتسربت مظاهر الحضارة الغربية وانتشرت منتجاتها البرّاقة والمغرية، وتسرب الفكر الغربي ذا الطابع الوضعي التجريبي، والمادي الإلحادي إلى حياة المسلمين من خلال الغزو والاستعمار، بواسطة الغزاة وأبناء المجتمع الإسلامي أنفسهم، فزاد ذلك في توتر الوضع العام واختلاله في حياة الإسلام والمسلمين. هذا حال الواقع في المجتمع الإسلامي، وفي العالم في العصر الحديث، هذا الواقع الذي انطلق منه المصلحون المسلمون في هذا العصر، وكانت حركة إقبال الفكرية، كما كانت محاولة مالك بن نبي الإصلاحية تستهدف بحث ودراسة هذا الواقع، وحصر مشاكله وهمومه، وتعيين سبل و وسائل إزالة محنته، وتوجيهه نحو النهضة والتقدم والحضارة.

على الرغم من التماثل الكبير بين محاولة إقبال وفكر مالك، واجتماعهما في الأصول والأهداف، وانتمائهما إلى فضاء فكر واحد، هو فضاء الفكر الإصلاحي في جانبه النظري، فهما مختلفان في أكثر من نقطة، لكن هذا الاختلاف ليس في الجوهر، ولا يصل إلى مستوى التعارض وإلى درجة التناقض، فهو تباين في طبيعة المنهج الذي أفرز المحاولتين، واختلاف في الرؤية إلى المشاكل والحلول، وإلى طبيعة الإصلاح والتجديد و منهجه. بالنسبة للأسلوب الذي اتبعه إقبال في دراسته وبحثه لواقع المسلم المعاصر وواقع الأوربي المعاصر، أو للفكر الإسلامي القديم والحديث وللفكر الإنساني عامة أو للفكر الغربي الحديث والحضارة الأوربية، والذي تضمّنه كتابه: " تجديد التفكير الديني في الإسلام " تميّز بعمق الفكر الفلسفي في الطرح والتناول والنقد، كما تميز بسعة ورحابه التأمل الميتافيزيقي، وبالتنسيق الكبير بين أنماط التفكير قديما وحديثا، وتميز بالاقتباس من الفكر الغربي، وجاءت فلسفته على نمط الأقدمين في موضوعاتها وعمقها ونسقيتها، وإن ارتبطت بإعادة بناء فلسفة الفكر الديني الإسلامي. أما الأسلوب الذي اتّبعه مالك ونجده في كتاباته ومؤلفاته، تميّز بطابعه العلمي الواقعي الاجتماعي حيث قام على تحليل القضايا الفكرية والظواهر الاجتماعية ونقدها، اعتمادا على معايير دينيه وعلميه وتاريخيه وعملية، هذه لم تكن في مستوى فلسفة إقبال، من حيث العمق الفلسفي والتأمل الميتافيزيقي بل ارتبطت بصفة مباشرة بواقع المسلمين المتخلف وبواقع الغرب المتحضر وبسبل وسائل وأدوات مباشرة تقضي على التخلف سواء على مستوى الفرد أو على مستوى المجتمع، في الجانب الروحي والفكري أو في جانب الاجتماعي والاقتصادي، والطابع الذي تميزت به دراسة مالك بن نبي التحليلية النقدية لواقع المسلمين ولحياتهم أو للفكر الإنساني القديم والحديث عامة والفكر الإسلامي بصفة خاصة، تميزت به منهج وأسلوب إصلاح والتجديد في نظره، فكانت الواقعية، والعلمية والبراغمانية في إطار القيم الخلقية الفضلى ومبادئ الإسلام السمحى هي ما تميز به هذا المنهج وهذا الأسلوب، وهو الطابع الذي تميزت به نظرة مالك إلى مشاكل وهموم وقضايا العالم الإسلامي، وإلى طبيعة الحلول في نظرية الحضارة، وهي نظرية عامة، أو في معالجته لقضايا جزئية كقضية المفهومية أو الأفكار في الجزائر، وإن كانت هذه القضايا مرتبطة بفكره الإصلاحي ونظريته في التجديد الحضاري بشكل عام.

أما طبيعة منهج الإصلاح وأسلوبه في فلسفة إقبال ارتبط بمحاولته نقد وإعادة بناء الفكر الديني في الإسلام، فالإصلاح عنده مرتبط أساسا بتغيير الذات، من خلال تغيير التصورات والفهوم، والمطالب والرغبات والمشاعر وغيرها. فتتحدد المبادئ والمنطلقات،

وتتحدد المناهج والسبل، وتتحدد الأهداف والغايات القريبة والبعيدة كل هذا يجرى ضمن رؤية فلسفية شاملة وإستراتيجية عامة أساسها روحي ومسارها روحي وغاياتها روحية، تتمثل في بلوغ السمو الروحي المطلوب، والديمقراطية الروحية، التي هي مقصد الإسلام ومبتغاه. ونظرة إقبال إلى مشاكل الإنسان المعاصر عامة والإنسان المسلم خاصة، وطرحه لهذه المشاكل ومعالجته لها كل هذا كان بطريقة فلسفية، تقوم على النقد العميق والتحليل الواسع والتأمل الميتافيزيقي، وما زاده في عمق الأفكار وسعة التحليل وقوة النقد، هو اطلاعه الواسع على الثقافات القديمة، وعلى الإسلام وعلى الفكر الحديث والمعاصر. لذا نجده يدرس ويحلل ويناقش أفكار غيره، ثم يستنتج ويعرض مواقفه اتجاه هذه الأفكار، والحلول للمشكلات، فجاء أسلوبه فلسفيا متميزا عن أساليب ومناهج غيره، في عصر يؤمن أصحابه بفكر ذي طابع تجريبي مادي يعترض على أسلوب القدماء في التفلسف.

إذا كانت هناك جملة من النقاط تجمع فلسفة إقبال بفلسفة مالك بن نبي، وتربط بين النظرتين في الإصلاح والتجديد، توجد كذلك جملة من النقاط التي تفصل بين الفلسفتين وتميز بين النظرتين، فلا نقاط الالتقاء تجعل منهما أمرا واحدا، ولا نقاط الاختلاف تفصل بينهما تماما، هذا من جهة، ومن جهة أخرى نجد المحاولتين من أصول واحدة، وانتماء ديني وتاريخي واحد، ومن طبيعة واحدة، ولأجل أهداف وغايات واحدة. فهما معا يمثلان فكرا فلسفيا، كانت الساحة الفكرية والثقافية والاجتماعية في أمس الحاجة إليه، وكل من الفلسفتين تمثل نظرية ذات أصول وأبعاد فلسفية، علمية، فكرية، ودينية، جاءت كمحاولة جدّية و جديدة لها أسبابها وظروفها لتغيير الفكر والواقع في حياة الإنسان الفردية والاجتماعية في العالم الاجتماعي المعاصر، وهي محاولة لم يعتبرها صاحبها خاصة بالعالم الإسلامي أو بالعالم المتخلف، فهي لا تقتصر على زمن معين أو وطن بعينه أو شعب بمفرده بل هي نظرية عامة موجهة للإنسانية جمعاء، هذا بالنسبة لإستراتيجية النقد وإعادة البناء في فلسفة إقبال، أو بالنسبة لنظرية الحضارة والتجديد الحضاري عند مالك بن نبي. وذلك على الرغم من ارتباط كل منهما بالإسلام وبواقع المسلمين وبظروف الإنسان في العصر الحديث وبأوضاعه المختلفة. لكن الإسلام رسالة عالمية ذات مبادئ و تعاليم ثابتة، وذات قيم ذاتية متطورة حسب تطور أحوال وظروف الإنسان عبر الزمن، ومشاكل وهموم الإنسان واحدة، وآفاقه وتطلعاته وأماله واحدة، مما يجعل النظرتين ذاتا طابع عام، لا تقتصران على فرد ما أو جماعة ما أو زمن ما. وكل واحدة منهما تمثل رؤية فلسفية إلى الإنسان والحياة والتاريخ والحضارة. وهي

رؤية لم يعرفها الفكر الفلسفي والإصلاحي في العالم الإسلامي المعاصر، إلاّ مع القليل من المفكرين أمثال إقبال و مالك.

إن الارتباط القوي والصلة المتينة بين نظرية الإصلاح عند محمد إقبال وبين نظرية الإصلاح عند مالك بن نبي على الرغم من التباين بينهما في بعض النقاط وهي قليلة، يجعل القارئ لهما والباحث فيهما يعتبر فلسفة إقبال المرجعية الفكرية، والأرضية الفلسفية الميتافيزيقية، والإطار النظري لفكرة الإصلاح والتجديد عند مالك بن نبي، التي هي بدورها تعتبر المحاولة الفكرية العملية والعلمية الواقعية لفكرة وفلسفة إقبال في الإصلاح والتجديد. ولقد ذكر فيلسوف الحضارة مالك بن نبي الفيلسوف الشاعر والمفكر المصلح محمد إقبال في كتابه " شروط النهضة "، وأشاد بمحاولته الفكرية الإصلاحية الفذة، التي خرجت عن المألوف، لما لها من دقة وعمق قي النظر وقوة في تشخيص العطب، وسلامة وصدق في التصور وذاك ما كان مالك بن نبي يسعى إليه.

قائمة المراجع:

- أسعد السحمراني: 1986، مالك بن نبي « مفكرا إصلاحيا» دار النفائس، بيروت، لبنان،الطبعة الثانية،.
- محمد إقبال: 1955، تجديد التفكير الديني في الإسلام، ترجمة عباس محمود، دار التأليف والترجمة والنشر، القاهرة .
- ماجد فخري: تاريخ الفلسفة الإسلامية، ترجمة كمال اليازجي،الجامعة الأمريكية،بيروت .
- مالك بن نبي: 1974، شروط النهضة، ترجمة عمر كامل مسقاوي وعبد الصبور شاهين، دار الفكر،الطبعة الثالثة، بيروت، لبنان، 1969.
- مالك بن نبي: آفاق جزائرية (للحضارة - للثقافة - للمفهومية) ترجمة الطيب الشريف، مكتبة النهضة الجزائرية، الجزائر، بدون طبعة،و بدون سنة .
- مالك بن نبي: 1985، دور المسلم و رسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين، دار الفكر، دمشق، سوريا، تصويره عن طبعة1978.
- عبد الوهاب عزّام: 1954، محمد إقبال سيرته و فلسفته و شعره مطبوعات البكستان.